عيد الجلاء

ازدهرت دمشق بالأعلام والزينات.. وغمـرت شـوارعها أسـراب الطلبـة والكشافة في لباس فرقهم الموحدة وهم في طريقهم إلـى الـشارع الرئيـسي لينضموا إلى موكب الجيش في استعراضه العظيم.. إنه اليوم التاريخي الـذي جلا فيه الأجنبي المستعمر عن أرض "سوريا" فوجدت ذاتها الضائعة..

قلوب أفراد الشعب في فرحة غامرة إلا قلوبا متآمرة رسمت في الظلام خططها لتعيد القيد إلى سوريا وتسلمها أسيرة لاستعمار جديد..

ترك الدكتور محسن مكتب الحزب ليقوم بهذا الإعداد النهائي لنفسية وأعصاب المثلث الذي اختير لتنفيذ جريمة الاغتيال، بعد أن قام بتهيئـة الجـو النفـسي الملائم في الحزب، وفي حلقة الوكيل "وجدي" بالذات، ومع نفـر مـن قـادة الحزب..

وفي منزل الوكيل وجدي كان سليم ونبيه ووجـدي منهمكـين فـي تنظيـف مسدساتهم وقد ران عليهم الصمت..

كان سليم، وقد زايلته نشوته الماضية واندفاعه الهائج مهبا لخوف بائس.. لقـد أجهده القلق والتوتر حتى أصابه دوار في رأسه.. وكان يحس كأنما مطرقـة تدق عظام دماغه.. سيقوم الليلة بتنفيذ ذلك الأمر الرهيب الـذي ابـتلاه بـه الحزب.. وأحس بنفسه كأنما يدور في دوامة عاصفة، في بحر لا قـرار لـه

وليس له من ربقتها خلاص.. ومرت به أطياف قريته وخطيبته التي حرص أن لا يراها ولا يفكر بها حتى لا تحبب إليه إرادة الحياة، وذكر مستقبله الشخصي المعتم التافه، وذلك المجد الذي وعدوه به بعد أن يتلاشى ويصبح جثـة فـي قبر.. وأحس بوحشة رهيبة كأنما حشر في هاوية سحيقة خانقة.. إنه لا يريـد إلا أن ينتهي من هذا القلق المدوي.. من هذا العذاب الذي يصهره، مـن هـذا الشيطان الذي جعل منه ألعوبة انفعالات عنيفة حتى لم يعد بينه وبـين انهيـار الأعصاب سوى خطوة..

إنه يعلم أنه مقتول لا محالة ولن يجيد الهرب من مصيره.. فلو جبن عن تنفيذ أوامر الحزب لقتله الحزب ومات بلا مجد، حشرة تسحق ولا يدري بها أحد.. فليتذرع بالإقدام وليتحدى كل من يشك بشجاعته.. وبالرغم من محاولته اليائسة ليسيطر على أعصابه لم يستطع أن يصمت الصوت الثرثـار الهـازئ فـي أعماقه:" ما أنت ؟.." لن تطمع أبدا أن تكون "كنسر زرادشت".. لا شيء سوى زاحفة.. عقرب سكرت بحقدها ودبت في الظلام لتُهلك وتَهلك بسمها.. يأس.. جبن وغدر.. كلا بطولة.. كل ما ينفع الحزب بطولة!..

أما نبيه فلقد كان هو الآخر نهبا للهواجس.. ماذا لو فشل سليم فـي محاولتـه وحمله المهمة الثقيلة؟.. إنه لا يريد أن يموت فهو حديث عهد بالزواج وزوجته حامل.. إن سليم عازب ووجدي عازب وليس في صلاتهما الإجتماعيـة مـا

يحرصان عليه.. أما هو فستعيش زوجته من بعده ثكلى، وطفله الذي لم يولـد يتيما.. ومع ذلك فالمجد يغريه ويريد مغامرة تصعد به إلى مـصاف أبطـال الحزب، وهو لن يخسر شيئا إن قام سليم بواجبه وسيحيا حتى يقطـف ثمـار مغامرات الحزب..

كان نبيه يشعر بهبوط فجائي في مشاعره ويكاتم أن تصطك أسنانه من بـرداء إصابته، وراح يعجب كيف يحافظ سليم على هدوئه ومهمته تكلفـه حياتـه.. وشعر بالاحترام العميق لزميله!..

وحتى وجدي الذي كان يبدو كثور ضخم أمام ضآلة جسم سليم لم يـنج مـن الخوف بالرغم من أن مهمته صورية وأنه سيكـسب مغـانم المغـامرة دون مغارمها وحدث نفسه وهو يختلس نظرة إلى سليم ويعجب بهدوئه..

- ما رأيت في حياتي مثل هذا المعتوه المثالي!..

ولما سمع وجدي طرقات الدكتور محسن على الباب في الموعد الـذي عينـه للالتقاء بهم.. وضع مسدسه بتؤدة على الديوان وذهب لاستقباله..

وبدأ الدكتور محسن حديثه بقوله:

- لقد استأجرت شقة قريبة من هنا في بناية تعود إلى رجل يـدعى "فاضـل النمر" في آخر هذا الشارع..

وعلق وجدي بقوله:

- أعرفه.. إنه صاحب مطحنة محدث الثراء.. وله ابنة جميلة كانت متزوجة من المحامي "الدكتور شفيق الوالي". .

ورقّت عينا الدكتور محسن لحظة بومضة عرفان ولكنه لم يلبث أن أطبق فمه الحاد بحركة ازدراء، وحول الحديث إلى ما جاء من أجله:

- إذن فلقد اخترتم طريق الخلود.. طريق الحياة.. طريق القوة.. أنتم البـرق لذلك اليوم الذي تحمل فيه جبابرة من الجيش رايات الزوبعة.. إنه قريب.. إن هذا اليوم الموعود ران.. بكم أنتم أيها الأبطال الذين تفتحـون للحـزب ثغرة الانطلاق إلى مجده..

وأخرج الدكتور محسن علبة لفائفه الفاخرة وقدم منها إلى الرقيب سليم ولكنـه اعتذر بأنه لا يدخن، وتناول كل من وجدي ونبيـه لفافـة وراحـا يـدخنانها بهدوء.. واستمر الدكتور محسن في حديثه وعيناه تخترقان سحب الدخان إلـى قلوب الرجال الثلاثة وكأنه منوم مغناطيسي يسحر إرادة مرضاه بإرادته القوية الجارفة..

- انظروا إلى فايز.. لقد قام بعمل بطولي إذ انتقم لزعيمنا الخالد ممن حكـم بإعدامه.. من قاتله الغادر.. هل نسيه الحزب؟.. ألا يمجد ذكـراه؟.. لقـد اعتبره شهيدا وكفل عائلته من بعده.. من لا يتمنى أن يخلد اسمه كما خلـد

إسم فايز؟.. إنه في الحزب على كل شفة ولسان.. وحين ننتـصر سـنمجد فايز أكثر ونصنع له تمثالا ينصب لذكراه فلا تنساه الأجيال..

وخاطب سليم موجها إليه اهتمامه الخاص:

- وأنت يا سليم.. سيكون عملك أكثر جداء من عمل فايز.. لقد انـتقم فـايز ولكنه لم يسجل انتصارا للحزب.. أما أنت ففداؤك ينقذ الحزب من الهلاك.. إن دماءك هي التي ستجري في شرايينه فتهبه الحيـاة.. ويهبـك بـدوره الخلود..

كان سليم يصغي متعبا شارد اللب مسلوب الإرادة، والدوامة تدور به متسارعة لا تلوي على شيء.. فرمقه الدكتور محسن بنظرة جمد لها الدم في شرايينه.. لقد ذكرته بنظرة قط رآه يوما يهر في نشوة افتراس حيوانية وقد أثبت ناظريه في فأر صغير وقف على بعد خطوتين منه مسمرا مصعوقا لا يـريم.. وقـال الدكتور محسن وهو يرتخي على مقعده بوثوق، تماما كما ارتخى ذلك القط في جلسته ارتخاء التوثب ليخدع فريسته ويتلذذ بما يداعبها من أمل الفرار:

- إن كنت تهاب مما أنت مقدم عليه..

فانتفض سليم مذعورا وقال:

- أنا أهاب؟.. لقد صممت ولن أتراجع..

وفي أعماقه كان يصارع من أجل إرادته.. إرادته التي يـشلها هـذا الرجـل المخيف..

- لن أكون هذا الفأر.. إنها إرادتي وليست إرادتك.. إنني أنا سـليم، الرجـل الذي لا يملأ عينيك، من يتحدى الموت في رضى وغبطة..

وابتسم الدكتور محسن كما يبتسم أستاذ لتلميذ له ينجح في امتحان صعب:

- نحن واثقون منك.. ومع ذلك أنصحك أن تتريث.. أنت ووجـدي ونبيـه.. فاليوم عيد وقتل "العقيد عزيز" في مثل هذا اليوم يثير الشعور العام ويرفع عزيز إلى مصاف الأبطال..

ولكن سليم أصر على تنفيذ الأمر دون تريث وقد أحس برغبة قـاهرة تحثـه ليتحدى هذا الرجل، وينهي إلى هذا، المحنة التي يعانيها ولا يطيل أمدها وقال:

- لقد بلغنا أمر من "المقدم" للقيام بهذا العمل في فرصة مناسبة.. واسـتطرد نبيه موضحا:

- إن مهرجانا سيقام الليلة بمناسبة العيد، ولا شك أن العقيد عزيز سيحضره..

ومط "الدكتور محسن" شفتيه في بسمة جامدة وقال:

- لست أريد أن أثبط من عزمكم ما دمتم متحمسين.. إن مثل هذه المهمـة لا يحسن أن يقوم بها الإنسان إلا وهو متوتر الأعصاب مهتاج النفس.. أليس في بيتك نبيذ يا وجدي؟..

وأسرع وجدي إلى خزانة قديمة في طرف الغرفة كـان يـستعملها لحاجـات متعددة واستحضر زجاجة خمر من النوع الفاخر وراح يفرغ منها في كؤوس ثلاثة.. وقدم الدكتور كوبه إلى سليم وقال:

- إن بعضا منها يرهف الحس ويقوي الأعصاب..

فأبى سليم وقال:

- لست معتادا..

وشرب الثلاثة نخب "مجد سليم" فابتسم المسكين وأردف الدكتور محسن قائلا:

- إذا أحسست بأن قلبك يخفق فخذ نفسا طويلا واحبسه في صـدرك فيـشتد عزمك ولا ترجف يدك فتخطئ الهدف..

وأجابه سليم بلهجة آلية:

- لقد تمرنت على الرماية جيدا..

واستطرد الدكتور محسن:

- واملأ ذهنك بالحقد على العقيد عزيز.. تذكر الإساءات التي نالهـا حزبنـا على يده.. تذكر أنه جعل من الجيش مستعمرة لأعوانه.. تذكر أنـه كـان سيغتال" المقدم حامد" لأنه قوي ونبيه يخشى مزاحمتـه.. تـذكر أن قفـزة واحدة تجعله رئيس الأركان فينتهي أمرنا في الجيش وفي خارجه..

وأجاب سليم وهو يفرك يديه بعصبية:

- إن حقدي لا حد له!..

وتريث الدكتور محسن قليلا وهو يرشف من كوبه ثم عاد ينقر على أعـصاب سليم من جديد:

- البطل ينتصر على مخاوف الموت التي ترعب قلب الإنسان العادي ويقهر وجوده الأرضي في سبيل هدفه.. إنه لا يموت إلا بيده!..

وأحس سليم بقلبه يطرق بين ضلوعه وبدا واجما بالرغم أن مثل ذلك الحـديث لم يكن جديدا عليه..

وتأمله الدكتور محسن مليا وقال:

- لم أنت شارد؟.. ليس في الموت ما يخيف.. إنه أمنية الأبطال.. إنه عرس الحياة!..

وأجابه سليم وهو يحس بالدوامة تقذف به إلى القاع:

- لست أخاف الموت.. إنه بحريتي واختياري.. إنني ممتلئ "بالإيمـان" بمـا سأقوم به..

* * *

كانت الجماهير تزدان بها الشوارع والشرفات وأسطحة المنازل كأنمـا هـي أزاهير متطلعة انبثقت في كل مكان.. وموسيقى الجيش تبلغ الأسماع إلى مدى بعيد.. والفرق العسكرية تمر في موكـب الاسـتعراض بـسلاحها وسـيرها

المنتظم.. بلباسها الموحد الأنيق وشاراتها الملونة.. وفي سرادق أعـد لكبـار رجال الدولة والجيش على طريق "بيـروت"، جلـس العقيـد عزيـز يتأمـل الاستعراض العسكري وقلبه يفيض بالغبطة لمرأى جيش الشعب العظيم الـذي ينمو يوما بعد يوم مثالا رائعا للوعي العميق واحتمال المسؤولية الكبيرة وهتف لنفسه:

- لست أخشى الموت.. إن كل فرد في الجيش هو "عزيز". .

وفي سوق "الحميدية" وقف نفر من الضباط يساومون تاجر سجاد على سجادة فاخرة وقع عليها اختيارهم.. لقد انتهزوا فرصة العيد ليـشتروا هديـة ثمينـة يقدمونها لقائدهم المحبوب العقيد عزيز بمناسبة عرسه القريب..

* * *

وعند المساء كان ثلاثة متآمرين سود القلوب في ثياب مدنية قد حشوا جيـوبهم بالموت ووقفوا يرصدون وجوه الداخلين إلى "سينما دمشق" فتعـود أنظـارهم مرتدة حسيرة.. لم يحضر العقيد عزيز المهرجان!..

كان وخطيبته إلهام يطوفان الشوارع بسيارة استعارها عزيز من صديق لـه..

وكان يحس بغبطة عارمة لفرحة الشعب بعيده، يوم جلا الإستعمار عن بـلاده ومارس سيادته، وهتف والسيارة تقف عند منعطف طريق حيث يمر الكـشاف بمشاعلهم تحفّهم جماهير الشعب راضية قريرة العين:

- أبيع دمي لحماية انتصارات هذا اليوم!..

وضغطت إلهام على يده بحب وإعجاب..

* * *